﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً .. ﴿٥٢﴾ ﴾ [النمل] دليل على أن الله أهلكهم فلم يُبْقِ منهم أحداً ، وتُركتْ بيوتهم خاوية بسبب ظلمهم ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً .. ﴿٥٢﴾ ﴾ [النمل] عبرة وعظة ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [النمل]

وفى مقابل إهلاك الكافرين :

﴿ وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا (١) وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾

فمن آمن واتقى من قوم صالح نجّاه الله عز وجل من العذاب الذى نزل بقومهم قوم ثمود .

انتهى الكلام هنا عن قصة ثمود ، وحين نقارن الأحداث هنا بما ورد فى سورة الشعراء نجد أحداثاً جديدة لم تُذكَر هناك ، كما لم يذكر هنا شيئاً عن قصة الناقة التى وردتْ هناك ، مما يدلُّ على تكامل لقطات القصة فى السور المختلفة .

ثم يقصُّ علينا طرفاً من قصة نبى آخر ، وهو لوط عليه السلام :

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾

---

(١) قيل : آمن بصالح قدر أربعة آلاف رجل ، أما الباقون فقد خرج بأبدانهم ـ فى قول مقاتل وغيره ـ خُرَاج مثل الحمص ، وكان فى اليوم الأول أحمر ، ثم صار من الغد أصفر ، ثم صار فى الثالث أسود .

(لُوطًا) جاءت منصوبة على أنها مفعول به ، والتقدير : أرسلنا لوطًا ، كما قال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ .. (٤٥) ﴾ [النمل]

وقوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ (٥٤) ﴾ [النمل] فذكر الداء الذى استشرى فيهم . وفى سورة الشعراء قال سبحانه ﴿ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ (٨٠) ﴾ [الأعراف] وهنا قال : ﴿ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ (٥٤) ﴾ [النمل] أى : تتعالمون بها وتتجاهرون بها ، فدلَّ على أنهم أجمعوا عليها وارتضوْهَا ، وأنه لم يَعُدْ عندهم حياء من ممارستها .

أو : يكون المعنى : وأنتم تبصرون ما حلَّ بأصحاب الفساد قبلكم من أقضية الله عليهم .

﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (٥٥) ﴾

هذا بيان وتفصيل للداء وللفاحشة التى انتشرت بينهم ، ومعنى : ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (٥٥) ﴾ [النمل] الآية فى ظاهرها أنها تتعارض مع ﴿ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ (٥٤) ﴾ [النمل] لكن المعنى ﴿ تَجْهَلُونَ (٥٥) ﴾ [النمل] الجهل هنا ليس هو ضد العلم ، إنما الجهل بمعنى السَّفه .

والبعض يظن أن الجهل ألاَّ تعلم ، لا إنما الأمية هى ألاَّ تعلم ، أمَّا الجهل فأنْ تعلم قضية مخالفة للواقع ؛ لذلك الأميُّ أسهل فى الإقناع ؛ لأنه خالى الذِّهْن ، أمَّا الجاهل فلديه قضية خاطئة ، فيستدعى الأمر أن تنزع منه قضية الباطل ، ثم تُدخل قضية الحق ، فالجهل - إذن - أشقُّ على الدعاة من الأمية .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾

عجيبٌ أمر هؤلاء ، فعلَّة الإخراج عندهم وحيثيته ﴿ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [النمل] سبحان الله ، ومتى كان الطُّهْر ذنباً وجريمة تستوجب أنْ يخرج صاحبها من بلده ؟ إنها نغمة نسمعها دائماً من أهل الباطل فى كل زمان ومكان حينما يهاجمون أهل الحق ، ويَسْعَوْن لإبعادهم من الساحة لتخلو لباطلهم .

ومن عَدْل الله تعالى أن يظهر فى منطقهم دليل إدانتهم وخُبْث طباعهم ، فكلمة ﴿ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [النمل] التى نطقوا بها تعنى : أنهم أنفسهم أنجاسٌ تزعجهم الطهارة ، وما أحلَّ الله من الطيبات ، وكأن الله تعالى يجعل فى كلامهم منافذ لإدانتهم ، وليحكموا بها على أنفسهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾

أى : من المُهْلَكين مع قومها ، فقد كانت تدل قومها على ضيفان لوط ؛ ليأتوا إليهم ليفعلوا معهم الفاحشة ، لذلك أصابها من العذاب مثلما أصاب قومها .

﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾

أى : قَبُح هذا المطر ، وإنْ أبهم المطر هنا فقد وضَّحه الحق - تبارك وتعالى - فى آيات أخرى فقال : من طين ، ومن سجِّيل ، وهو الطين إذا حُرِق ، فصار فخَّاراً ؛ وهذه الحجارة منظمة مُسوَّمة[1] صنعها الله لهم بحساب دقيق ، فلكُلٍّ واحد منهم حَجَره المسمَّى باسمه ، والذى لا يُخطئه إلى غيره .

﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۗ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

نعرف أن الله تعالى يُحمد على النعمة ؛ لكن هناك ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ .. ﴿٥٩﴾ ﴾ [النمل] جاءت بعد نقمة وعذاب وأخْذ للمكذِّبين . قالوا[2] : الخطاب هنا مُوجَّه لرسول الله ﷺ ، وفيه إشارة إلى أن جُنْد الله هم الغالبون ، وأن العاقبة لهم ليطمئن رسول الله ، كما أن تطهير الكون من المفسدين فيه ، وحين تستريح منهم البلاد والعباد ، هذه نعمة تستوجب ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ .. ﴿٥٩﴾ ﴾ [النمل]

وفى إهلاك الكافرين والمكذِّبين عبرة ودرسٌ لغيرهم ، حتى لا يتورطوا فى أسباب الهلاك ، وهذه نعمة أخرى تستحق الحمد .

لذلك أمرنا ربنا - تبارك وتعالى - أن نحمده إنْ رأينا خيراً نزل

---

(١) سوَّم الشيء : علَّمه بعلامة . والسُّومة : العلامة والسيمة والسِّيماء بكسر السين : العلامة . [القاموس القويم ١/٣٣٧] .

(٢) قاله ابن عباس ، وسفيان الثورى فيما نقله عنهما السيوطى فى الدر المنثور (٦/٣٧٠) وقال النحاس : هذا أوْلى ، لأن القرآن مُنزَّل على النبى ﷺ ، وكل ما فيه فهو مخاطب به عليه السلام إلا ما لا يصح معناه إلا لغيره . [نقله القرطبى فى تفسيره ٧/٥١٠٣] .

بالأخيار ، أو شراً حَلَّ بالأشرار . فالمعنى ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ .. (٥٩)﴾ [النمل] أن الرسل انتصروا وغلبوا ، وأن المفسدين انهزموا واندحروا .

ألاَ ترى قَوْلَ أهل الجنة : ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (٧٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ[1] مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ .. (٧٤)﴾ [الزمر]

كذلك حين نرى الشرير الذى شاع شرُّه وكثُرَ فساده حين ينزل به ما يستحق من عقاب الله نقول جميعاً ساعةَ نسمع خبره : الحمد لله ، هكذا بعملية لا شعورية عند الجميع أنْ تلهج ألسنتُهم بالحمد عند نزول النعمة على أصحابها ، والنقمة على مَنْ يستحقها .

ويقول تعالى عن أهل الشر والفساد : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (٤٢) فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٤٣) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ (٤٤) فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٥)﴾ [الأنعام]

فبعد أنْ قطع الله دابر الظالمين قال : الحمد لله رب العالمين ، ونلحظ هنا الفرق بين فتح لك ، وفتح عليك ؛ فتح لك يعنى : فتح فى صالحك ، ومنه : ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا (١)﴾ [الفتح]

أما فتح عليهم يعنى : بالسوء نكايةً فيهم ، فمعنى ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ .. (٤٤)﴾ [الأنعام]

أعطاهم الخير ليهلكهم به ، وهم فى حال نعمة ومكانة ، حتى إذا أخذهم الله كان أَخْذه أليماً شديداً .

---

(١) بوأه : أسكنه ، وبوأه فى الأرض : مكَّن له فيها . وتبوأت المنزل : اتخذته سكناً . [القاموس القويم ١/٨٨] .

وفي قصة نوح عليه السلام : ﴿ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٨) ﴾ [المؤمنون]

فحَمْدُ الله هنا على أمرين : الحمد لله لأنه أغرق الكافرين الظالمين وخلَّصنا منهم ، والحمد لله لأنه نجّى المؤمنين .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَسَلامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ .. (٥٩) ﴾ [النمل] وهم المؤمنون الذين نصرهم الله ، وجعل العاقبة لهم ، والسلام عليهم بعدما لاقوه من عَنَت الكفار وعنادهم ، فالحمد لله الذى أهلك المفسدين ، وأتى بالسلام على المهتدين .

ثم يطرح الحق سبحانه قضية ، ويأتى بها فى صورة سؤال واستفهام ؛ لتكون أبلغ فى النفس من مجرد الإخبار بها : ﴿ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (٥٩) ﴾ [النمل]

ولو أن الآية قالت : قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى لأن الله خير وما يشركون به شرٌّ لكان الكلامُ خبراً ، والخبر فى ذاته وبصرف النظر عن قائله يحتمل الصدق أو الكذب .

أمَّا حين تُعرض هذه القضية فى صورة الاستفهام ، فقد جعلتَ مخاطبك هو الذى ينطق بها ، كما لو أنكر أحد الأصدقاء جميلَك وأياديك عليه ، فبدل أن تخبر أنت : فعلتُ لك كذا وكذا تدَعْه هو الذى يُخبر فتقول : ألم أفعل لك كذا وكذا ؟ ولا يقول هذا إلا واثقٌ ومعتقدٌ أن الإجابة ستكون فى صالحه .

فالمعنى : ﴿ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (٥٩) ﴾ [النمل] قولوا لنا أنتم ونحن نرتضى حكمكم بعدما رأيتُم وسمعتم من هذه القصة : آلله خير أم الذين أشركوا به خير ؟ ولابد أن تأتى الإجابة : الله خير ؛ لذلك

لما نزلت هذه الآية انفعل لها رسول الله ﷺ وأسرع بالجواب : « بل الله خير وأبقى وأجلُّ وأكرم »[١] .

مما يدل على أن الانفعال بالقرآن واجب ونقصد الانفعال بمعانيه ، لا الانفعال بالصوت والنغمات كالذى نسمعه من هؤلاء (الذكّيرة) الذين يُشجِّعون المقرئين بالصياح والضجيج الذى لا يتناسب وجلال الآيات ، وهم مع ذلك لا يفهمون المعانى ولا يتأثرون بها ، لدرجة أن منهم مَنْ يسمع آيات العذاب فيقول بأعلى صوته : اللهم زِدْنا .

وقد كان الكتبة من الصحابة ينفعلون بالآيات معنىً ، حتى إن أحدهم ليكمل الآية ويختمها بما يناسبها قبل أن تُملَى عليه ، لماذا ؟ لأنهم فهموا عن الله وتأثروا بالمعنى ، مما يدل على أن القرآن جاء موافقاً للفطرة السليمة ، ومن هذا التوافق قول أحد الصحابة[٢] ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ﴾ [المؤمنون] فنزل بها القرآن كما قالها .

والنبى ﷺ يقول عن سورة الرحمن « لقد قرأتُ سورة الرحمن على إخوانكم الجن ، فكانوا أحسن استجابة منكم ، فكانوا كلما قلت ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣) ﴾ [الرحمن]

قالوا : لا بشىء من نعمائك ربنا نكذب فلكَ الحمد[٣] .

إذن : حين نسمع كلام الله علينا أن ننفعل به ، وأنْ نتجاوبَ معه

(١) أورده القرطبى فى تفسيره (٧/٥١٠٥) أن النبى ﷺ كان إذا قرأ هذه الآية يقول : « بل الله خير وأبقى ، وأجل وأكرم » ، وذكره السيوطى فى الدر المنثور (٦/٣٧٠) وعزاه لعبد بن حميد عن قتادة « أنه كان إذا قرأ » ، ولم يذكر رفعه للنبى ﷺ .

(٢) هو : عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، قال : وافقت ربى ووافقنى فى أربع ، نزلت هذه الآية ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ﴾ [المؤمنون] . قلت أنا : فتبارك الله أحسن الخالقين . فنزلت ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ﴾ [المؤمنون] ذكره ابن كثير فى تفسيره (٣/٢٤١) وعزاه لابن أبى حاتم .

(٣) أورده السيوطى فى « الدر المنثور » (٧/٦٩٠) وعزاه للترمذى وابن المنذر وأبى الشيخ فى العظمة والحاكم وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه .

تجاوباً واعياً ، فعند آية التسبيح نُسبِّح ، وعند آية الحمد نحمد الله ، وعند آية الدعاء نقول : آمين ، هذه مواجيد انفعالية لسماع القرآن والتجاوب معه ، لا أنْ نسمعه أو نهذه كهذ[1] الشِّعْر .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾

﴿ أَمَّنْ .. ﴿٦٠﴾ ﴾ [النمل] هذا استفهام آخر ، وكأن الحق - تبارك وتعالى - بعد أن كتب الهزيمة على الكافرين والنصر للمؤمنين أراد أنْ يُربِّب فى النفس الإيمان بالله ، وأن تأخذ من نصر الله تعالى للمؤمنين خميرة إيمانية ، ومواجيد جديدة تظل شحنة قوية تدفعهم بحيث يكونون هم أنفسهم على استعداد للتصدى لأعداء الدعوة والمناهضين لها .

يقول سبحانه :

﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ .. ﴿٦٠﴾ ﴾ [النمل]

إذن : المسألة لا تقف عند معركة انتصر فيها المؤمنون على الكافرين ، فهناك فى خلق الله ما هو أعظم من ذلك ، فلو سألتهم : مَنْ خلق السموات والأرض يقولون : الله ولئن سألتهم : مَنْ خلقهم يقولون : الله ، فهذه مسائل لا يستطيعون إنكارها ، فكأن الحق -

(١) الهذ (بالذال) : سرعة القراءة . وفى حديث ابن عباس قال له رجل : قرأت المفصَّل الليلة، فقال : أهذاً كهذ الشعر ؟ أراد أتهذ القرآن هذاً فتسرع فيه كما تسرع فى قراءة الشعر . [لسان العرب - مادة : هذذ] .

تبارك وتعالى - يقول لهم : آلله الذى خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء .. أم ما تشركون ؟

وما دام أن الله تعالى ادَّعى مسألة الخَلْق لنفسه سبحانه ، ولم يَقُمْ لهذه الدعوى منازع ، فقد ثبتتْ له سبحانه إلى أنْ يدَّعيها غيره ﴿ أَإِلَـٰهٌ مَّعَ اللَّهِ .. (٦٠) ﴾ [النمل] فإنْ كان هناك إله آخر خلق الخَلْق فأين هو : إما أنه لم يَدْرِ بهذه الدعوى ، أو دَرَى بها وجَبُن عن المواجهة ، وفى كلتا الحالتين لا يصلح إلهاً ، وإلا فليأتِ هو الآخر بخَلْق ومعجزات أعظم مما رأينا .

فإذا قال الله تعالى أنا الله ، ولا إله غيرى ، والخَلْق كله بسمائه وأرضه صنعتى ، ولم يوجد معارض ، فقد ثبتت له القضية ؛ لذلك يقول سبحانه :
﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ .. (١٨) ﴾ [آل عمران]

فقضية الوحدانية شهد الله أولاً بها لنفسه ، ثم شهد بها الملائكة وأولو العلم من الخَلْق .

ويقول سبحانه فى تأكيد هذا المعنى : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا (٤٢) ﴾ [الإسراء]

أى : لاجتمع هؤلاء الآلهة ، وثاروا على الإله الذى أخذ منهم مُلْكهم ، وادعاه لنفسه ، أو لذهبوا إليه ليتقرَّبوا منه ويتودَّدوا إليه .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً (٦٠) ﴾[النمل] السماء : كلُّ ما علاك فأظلَّك ، والماء معروف أنه ينزل من السحاب وهو مما علانا ، أو أن الإنزال يعنى إرادة الكون ، وإرادة الكون فى كل كائن تكون من السماء ، ألاَ ترى قوله تعالى :﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ (٢٥) ﴾ [الحديد]

وقوله تعالى:﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ..(٢٥) ﴾ [الحديد]
ومعلوم أن الحديد يأتى من الأرض ، لكن إرادة كونه تأتى من السماء .

ثم يقول سبحانه : ﴿ فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ ..(٦٠) ﴾[النمل] للماء فوائد كثيرة فى حياتنا ، بل هو قوام الحياة ؛ لذلك اقتصرتْ الآية على ذكْر الحدائق ؛ لأنها قوام حياة الإنسان فى الأكل والشرب .

فإنْ قُلْتَ : نحن نعتبر الآن الحدائق الجميلة من باب الكماليات ، وليس بها مُقوِّمات حياتنا . نقول : نعم هى كذلك الآن ، لكن فى الماضى كانوا يسمون كل أرض زراعية محوطة بسور : حديقة ، أو حائط .

وقال ﴿ ذَاتَ بَهْجَةٍ .. (٦٠) ﴾ [النمل] مع أنك لو نظرتَ إلى القمح مثلاً وهو عَصَب القوت لوجدته أقل جمالاً من الورد والياسمين والفُل مثلاً ، وكأن ربك - عز وجل - يقول لك : لقد تكفلتُ لك بالكماليات وبالجماليات ، فمن باب أوْلَى أوفر لك الضروريات .

والحق - تبارك وتعالى - يريد أن يرتقى بذوْق عباده وبمشاعرهم ، واقرأ مثلاً قوله تعالى :﴿ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ[1] ..(٩٩) ﴾ [الأنعام] يعنى : قبل أن تأكل من هذه الثمار تأمل فى جمالها ومنظرها البديع ، وكأنها دعوة للرقى بالذوق العام والتأمل فى بديع صُنْع الله .

ألاَ ترى أن الله تعالى أباح لك النظر إلى كل الثمار لتشاهد جمالها ، ولم يُبح لك الأكل إلاّ مما تملك ؟ لذلك قال : ﴿ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ ..(٩٩) ﴾ [الأنعام] فإنْ لم تكونوا تملكونه ، فكفاكم التمتُّع بالنظر إليه .

ومن هذا الارتقاء الجمالى قوله تعالي بعد أنْ حدَّثنا عن الضروريات فى الأنعام :﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (٦) ﴾ [النحل]

(١) أينع الثمر يينع : أدرك ونضج وحان قطافه . [القاموس القويم ٢/٣٧٣] .

وقال :﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ..(٨)﴾ [النحل]

فأعطانا ربنا - عز وجل - ضروريات الحياة ، وأعطانا كمالياتها وجمالياتها . وتأمل دقة الأسلوب في ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ..(٦٠)﴾ [النمل] فالضمير في ﴿ خَلَقَ ﴾ ضمير الغائب (هو) يعود على الله عز وجل ، وكذلك في (وَأَنزَلَ) أما في (فَأَنبَتْنَا) فقد عدل عن ضمير الغائب إلى ضمير المتكلم (نحن) الدال على التعظيم ، فلماذا ؟

قالوا : لأن نعمَ الله فيها أشياء لا دخْل للإنسان فيها كالخَلْق وإنزال المطر ، ومثل هذه المسائل لا شبهةَ لاشتراك الإنسان فيها ، وهناك أشياء للإنسان دَخْلٌ فيها كالزرع والإنبات ، فهو الذي يحرث ويزرع ويسقى .. الخ مما يُوحى بأن الإنسان هو الذى يُنبت النبات ، فأراد سبحانه أنْ يُزيل هذا التوهم ، فنسب الإنبات صراحة إليه - عز وجل - ليزيل هذه الشبهة .

وربك - سبحانه وتعالى - يحترم فعلْك ، ويذكر لك سَعْيك ، فيقول : ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤)﴾ [الواقعة] نعم لك عمل وسعى في هذه المسألة ، لكنك استخدمتَ الأرض المخلوقة لله ، وآلة الحديد المخلوقة لله ، والبذور المخلوقة لله ، والماء المخلوق لله ، أما مسألة الإنبات نفسها فلا دَخْلَ لك بها ، فلا تَقُلْ زرعت ؛ لأننا نحن الزارعون حقيقة ، لكن قُلْ : حرثتُ وسقيتُ .

لذلك تجد الرد في آخر الآية نافياً لأيِّ شبهة في أن لك دَخْلاً في مسألة الزرع :﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا .. (٦٥)﴾ [الواقعة] وأكّد الفعل بلام التوكيد لينفي هذه الشبهة .

على خلاف الكلام عن الماء ، حيث لا شبهة لك فيه ، فيأتي نفس الفعل ، لكن بدون لام التوكيد :﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (٦٨) أَأَنتُمْ

أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا[1] فَلَوْلا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [الواقعة]

ومعنى : ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [النمل] العدل معلوم أنه صفة مدح فساعةَ تسمع ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [النمل] قد تظن أنها صفة طيبة فيهم ، لكن لابُدَّ في مثل هذا اللفظ من تدقيق ؛ لأنه يحمل معاني كثيرة . نقول : عدلَ في كذا يعني : أنصف ، وعدل إلى كذا يعني : مال إليه ، وعدل عن كذا : يعني : تركه وانصرف عنه ، وعدل بكذا ، يعني : سوَّى .

فالمعنى هنا ﴿ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [النمل] عنه ، ويا ليتهم يعدلون عنه فحسب ، إنما يعدلون عنه إلى غيره ، ويسوِّون به غيره ، كما قال سبحانه في موضع آخر : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ ﴾ [الأنعام]

أي : يسوُّونه سبحانه بغيره .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَءِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

لما تكلم الحق سبحانه في الآية السابقة عن السموات والأرض أتى بأشياء مشتركة بينهما ، فالسماء ينزل منها الماء ، والأرض تستقبل الماء ، وتنبت لنا الحدائق ذات البهجة .

---

(١) الاجاج : الملح الشديد الملوحة . أج الماء يؤج : اشتدت ملوحته . [القاموس القويم ١/٧] .